الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية

للشيخ صفي الرحمن المباركفوري

دار السلام للنشر والتوزيع
الرياض

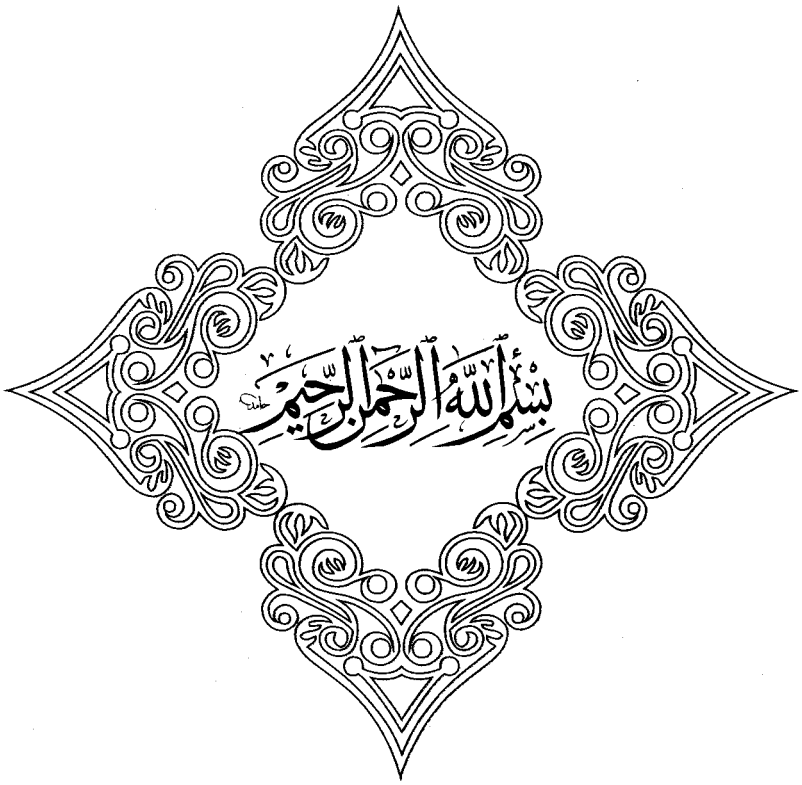
بسم الله الرحمن الرحيم

الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار السلام للنشر والتوزيع

شارع الأمير عبد العزيز بن جلوي (الضباب سابقًا) مقابل الغرفة التجارية

المملكة العربية السعودية ص. ب: ٢٢٧٤٣ الرياض ١١٤١٦

هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢ - ٤٠٤٣٤٣٢-١-٠٠٩٦٦ فاكس: ٤٠٢١٦٥٩-١-٠٠٩٦٦

E-mail: darussalam@awalnet.net.sa, riyadh@dar-us-salam.com Website: www.dar-us-salam.com

دار السلام العليا: تلفون: 00966-1-4614483 فاكس: 4644945

دار السلام الملز: تلفون: 00966-1-4735220 فاكس: 4735221

دار السلام جدة: تلفون: 00966-2-6879254 فاكس: 6336270

دار السلام المدينة المنورة: تلفون: 00966-503417155 فاكس: 8151121

دار السلام خميس مشيط: تلفون: 00966-7-2207055 : 0500710328

دار السلام الخبر: تلفون: 00966-3-8692900 فاكس: 8691551

دار السلام الشارقة: تلفون: 00971-6-5634623 فاكس: 5632624

دار السلام باكستان: تلفون: 0092-42-7240024 فاكس: 7354072

دار السلام لندن: تلفون: 0044-208-539 4885 فاكس: 208-5394889

دار السلام نيويورك: تلفون: 001-718-6255925 فاكس: 718-6251511

دار السلام هيوستن: تلفون: 001-713-7220419 فاكس: 7220431

دار السلام هونج كونج: تلفون: 00852-23692722 فاكس: 23692944

دار السلام ماليزيا: تلفون: 00603-77109750 فاكس: 77100749

كلمة معالي الشيخ محمد علي الحركان «رحمه الله»
الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي سابقًا

الحمد لله رب العالمين، خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين، بشّر وأنذر، ووعد وأوعد، أنقذ الله به البشر من الضلالة، وهدى الناس إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض أَلَا إلى الله تصير الأمور، وبعد:

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ الشفاعة والدرجة الرفيعة، وهدى المسلمين إلى محبته، وجعل اتباعه من محبته تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١]، فكان هذا من الأسباب التي صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ، وتتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينها وبينه ﷺ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه، ونشر سيرته العطرة ﷺ، وسيرته ﷺ هي أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» والقرآن كتاب الله وكلماته التامة، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعاً.

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التي انبثق عنها المؤتمر الإسلامي الأول للسيرة النبوية الشريفة الذي عقد بباكستان سنة ١٣٩٦ هـ، حيث أعلنت الرابطة في هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودي، توزع على أحسن خمسة بحوث في السيرة النبوية بالشروط الآتية:

(١) أن يكون البحث متكاملًا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها.

(٢) أن يكون جيدًا ولم يسبق نشره من قبل.

(٣) أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التي اعتمد عليها في كتابة البحث.

(٤) أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته، مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت.

(٥) أن يكتب البحث بخط واضح، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة.

(٦) تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى.

(٧) يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الآخر ١٣٩٦هـ، وينتهي موعد القبول بغرة المحرم

١٣٩٧هـ.

(٨) تُسَلَّم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في ظرف مختوم، وتضع الأمانة عليه رقمًا تسلسليًا خاصًا.

(٩) تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء في هذا الشأن.

فكان هذا الإعلان حافزًا لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله ﷺ، واستعدت رابطة العالم الإسلامي لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى.

وبدأ الإخوان الكرام في إرسال بحوثهم بهذه اللغات، وقد بلغ عددهم واحدًا وسبعين ومائة بحث منها:

٨٤ بحثًا باللغة العربية، ٦٤ بحثًا باللغة الأردية، ٢١ بحثًا باللغة الإنجليزية، وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية.

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتي:

(١) الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفي الرحمن المباركفوري من الجامعة السلفية بالهند، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودي.

(٢) الفائز بالجائزة الثانية الدكتور ماجد علي خان من الجامعة الملية الإسلامية نيودلهي الهند، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودي.

(٣) الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان، ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودي.

(٤) الفائزة بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود محمد منصور ليمون من جمهورية مصر العربية، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودي.

(٥) الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودي.

وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين في المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول الذي عقد في كراتشي في شهر شعبان سنة ١٣٩٨هـ. كما أُعلن عن ذلك في جميع الصحف.

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلًا كبيرًا، تحت إشراف صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز، وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة، نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة، حيث تَفَضَّل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ. وفي هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث

الفائزة ونشرها بعدة لغات، وتنفيذًا لذلك هاهي ذي تضع بين يدي القارىء الكريم باكورة طبعات تلك البحوث، وهو بحث الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، من الجامعة السلفية بالهند لأنه الفائز بالجائزة الأولى، وستوالي طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعًا أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه نِعمَ المولى ونِعمَ النصير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد بن علي الحركان «رحمه الله»
الأمين العام
لرابطة العالم الإسلامي سابقًا

مقدمة الناشر

ستظل سيرة الرسول ﷺ هي الرصيد التاريخي الأول الذي تستمد منه الأجيال المتلاحقة من ورثة النبوة وحملة مشاعل العقيدة زاد مسيرها، وعناصر بقائها، وأصول امتدادها.

ومن دَرَسَ تاريخه ﷺ وأعطاه حقَّه من النظر والفكر والتحقيق رأى نُسِقًا من التاريخ العجيب، استعلى به الرسول ﷺ والفئة المؤمنة معه على عناصر المادة وعوامل الجذب الأرضي، وارتقوا بالإنسانية إلى درجات لم تشهدها على امتداد عصورها وأزمانها.

ومن يعمق النظر في سيرته ﷺ - محاولًا أن يتتبع السِّر الذي وقع في التاريخ القفر المجدب فأخصب به، وأنبتت الدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة، فأنشأ ﷺ رجالًا إن عبتهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة، يجدها تقول له: - إن ههنا دنيا الصحراء التي تَرَبَّى في أحضانها الرجال الذين دخلوا بالإسلام على ما دخل عليه الليل.

ولو تأملت في أفعاله ﷺ وجدتها تقول لك:
إني أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد.

ولم يكن مثله ﷺ في الصبر على البلاء والثبات على الحق واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا، ولا في الرحمة ورقَّة القلب والسمو فوق معاني البقاء الأرضي، فهو قد خُلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة.

وبذلك كان ﷺ منبع تاريخ في الإنسانية كلها دائمًا، وللدنيا رأس نظام أفكارها الصحيحة.

ولقد طبع الله سبحانه وتعالى على قلب الرسول ﷺ، فباعد بينه وبين زيغ الهوى وسرف الطبيعة، ولذلك يجب على من يقرأ سيرته ﷺ ويتعرَّف على شمائله وحديثه أن يبحث دائمًا عن طابع الله في كل شيء فيها، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع أن تحقق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها، وأنه ﷺ كان إنسانًا، وكان أيضًا حركة في تقدُّم الإنسانية، وأن من معجزاته ﷺ أنه أضاف في تاريخه ما عجزت عنه البشرية في تاريخها، وأن كل أموره ﷺ موضوعة وضعًا إلهيًّا كأنها صفات كوَّنها الله وعلَّقها في التاريخ لمعاني الحياة تعليق الشمس في السماء لمواد الحياة. ولو تأملت بيانه ﷺ، تجده ينقلك إلى مثل الحالة التي تتأمل فيها روضة تتنفس على القلب، أو منظرًا يهز خياله النفس، أو عاطفة تزيد بها الحياة في الدم، على هدوء وروح وإحساس ولذة، ثم يزيد على ذلك أنه يُصلِحُ من الجهات الإنسانية في نفسك، ثم يرزق الله منه من رُزِقَ النور، فإذا أنت في ذوق البيان كأنَّما ترى المتكلِّم ﷺ وراء

كلامه.

هذا يكون النظر في كلامه ﷺ، فهو كلام كلما زدته فكرًا زادك معنى، وتفسيره قريب.. قريب كالروح في جسمها البشري، ولكنه بعيد كالروح في سرها الإلهي، فهو معك على قدر ما أنت معه، إن وقفت على حدٍّ وقف، وإن مددت مدَّ، وما أدَّيت به تأدَّى، وليس فيه شيء من كل ما تراه لكل بلغاء الدنيا، من صناعة عبث القول، والرغبة في تكثير سواد المعاني، وترك اللسان يطيش طيشة اللغوي يتعلَّق بكل ما عُرِض﴾ له، إنما هو كلامٌ قيل لتصير به المعاني إلى حقائقها، فهو من لسان وراءه فكر، وراءه قلب، وراءه إيمان، وراءه الله جل جلاله، وهو كلام في مجموعه كأنه دنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة، لا تبرح ماضية في طريقها السوي على دين الفطرة فلا تتسع لخلاف ولا يقع بها التنافر.

من هنا تبرز الأهمية القصوى في أن تكون سيرة الرسول ﷺ وأقواله عاملة في النفس المؤمنة عمل القلب من الجسد، ورقيبة عليها رقابة الضمير على العقل، حتى يكون الارتقاء والسمو والعلو والارتفاع بالأجسام فوق جواذب المادة وقيود الأرض.

ولن تستطيع النفس أن تحقق هذه المقوِّمات وبها بقايا من رواسب المادة أو جواذب الأرض، ولن تستطيع النفس أن ترفرف وتحلق إلا إذا أدركت غاية وجودها من خلال رصيدها التاريخي الطويل، الذي لم تظفر به أمة من الأمم كما ظفرت أمة الإسلام: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة». عبارات تفيض إيمانًا وتشعُّ ضياءً، وخرجت من نفس تربت على يد القائد والمعلم الأول ﷺ، فأدركت غاية وجودها فعملت على تحقيقها.. وهكذا يجب أن يكون كل من أراد أن يشارك الكتائب في سيرها في الطريق الطويل.

وللأهمية التي تحتلها سيرة الرسول ﷺ في حياة المسلمين على امتداد التاريخ وفي حياتهم الحاضرة؛ فقد وضعت كتب كثيرة اختلفت نظراتها للسيرة ومناهجها في تناولها، ولكن كانت هناك بعض الكتب في هذا المجال امتازت بشمولها وكمالها ودقة منهجها، بما يعين القارىء على أن يتناول مسيرة الرسول ﷺ في يسر يعينه على فهمها فهمًا شاملًا كاملًا واستيعابها دونما نقص أو خلل.

وكان هذا الكتاب «الرحيق المختوم» للأستاذ صفي الرحمن المباركفوري - من الجامعة السلفية بالهند - من الكتب المتفرِّدة في السرد التاريخي والذي امتاز بمنهجه الواضح وشموليته الجامعة في عرض السيرة العطرة عرضًا عميقًا يسيرًا، خاليًا من الشوائب أو الأباطيل التي أُلحِقَتْ ببعض كتب السيرة.

ويمتاز هذا الكتاب أيضًا في كونه مُعِيْنًا لكل قارىء أو باحث في السيرة أن يجد بغيته فيه.

وقد فاز هذا الكتاب بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التي نظمتها رابطة العالم

الإسلامي.

ولا ننسى هنا أن ننوه بإضافة هذا الجهد إلى الجهود العظيمة التي بذلها العلماء الهنود على امتداد العصور، في حرصهم وحفظهم للتراث الإسلامي وإبداعهم الفذ في مجالات التفسير والسيرة والحديث وعلومه بخاصة.

وتفتخر إدارة دار السلام بتقديم هذه الطبعة الجديدة المصححة حيث عمل بها المؤلف - حفظه الله - على طلب الإدارة بعض التعديلات المهمة النافعة بعد التحقيق الشامل للنصوص والنظر العميق في وقائع حياة الرسول ﷺ ومراحل دعوته، وأودع فيها فوائد مستجادة وتعليقات مفيدة، وصحَّح بعض الأخطاء الواردة في الخرائط، فجزاه الله خيرًا عنَّا وعن أمة محمد ﷺ وجعل هذا العمل في ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ولم يأل الإخوة أعضاء اللجنة للتحقيق والإعداد بدار السلام جَهْدًا في تصحيح الكتاب وإخراجه على الوجه المطلوب، فبعد هذه الإضافات الطيبة خرج الكتاب بصفة نراها أصحَّ الطبعات وأسلمها من التصحيف والغلط وأنفعها للقراء الكرام.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يَعُمَّ به الفائدة والنفع للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا كثيرًا.

الناشر

خادم الكتاب والسنة

عبد المالك مجاهد

كلمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فجعله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا، اللهُمَّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وفَجِّر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيرًا.

وبعد، فإن من دواعي الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامي أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذي انعقد في باكستان في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦هـ عن تنظيم مسابقة على مستوى العالم الإسلامي، للبحث حول موضوع السيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام - تنشيطًا للكاتبين، وتنسيقًا لجهودهم الفكرية، وإني أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفها البيان. فإن السيرة النبوية والأسوة المحمدية على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام - إذا لاحظناها بعين الدِّقة والاعتبار - هي المنبع الوحيد الذي تتفجَّر منه ينابيع حياة العالم الإسلامي وسعادة المجتمع البشري.

وإن من سعادتي وحسن حظي أن أُقدِّم بحثًا أساهِمُ في تلك المسابقة المباركة، ولكن أين أنا حتى ألقي ضوءًا على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ، وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره، حتى لا يتهالك في دياجير الظلمات، بل يحيا وهو من أمته، ويموت وهو من أمته، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته.

وكلمة بسيطة أرى أن أقدِّمَها عن منهجي في مقالتي هذه: إني حين قررت كتابتها رأيت أن أضعها في حجم متوسط متجنبًا التطويل الممل والإيجاز المخل، وقد وجدت في المصادر اختلافًا كبيرًا في ترتيب الوقائع، أو في تفصيل جزئياتها، وفي مثل هذه المواقع قمت بالتحقيق البالغ، وأدرت النظر في جميع جوانب البحث، ثم أثبت في صلب المقالة ما ترجَّح لديَّ بعد التحقيق، ولكن احترزت عن إيراد الدلائل والبراهين؛ لأن ذلك يُفْضِي إلى طول غير مطلوب. نعم! رُبَّما أشرت إلى الدلائل حين خِفْتُ الاستغراب ممن يقرأ المقالة، أو حين

رأيت عامة الكاتبين ذهبوا إلى خلاف الصحيح.

اللَّهُمَّ قدر لي الخير في الدنيا والآخرة، إنك أنت الغفور الودود ذو العرش المجيد.

الجمعة المباركة ٢٤/ ٧/ ١٣٩٦هـ

٢٣/ ٧/ ١٩٧٦م

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية

بنارس - الهند

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ولا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها. ونظرًا إلى ذلك نُقدِّم فصلًا عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام، وعن الظروف التي بُعث فيها محمد ﷺ.

موقع العرب:

كلمة العرب تنبىء عن الصحارى والقفار، والأرض المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أُطلِقَ هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أُطْلِقَ على قوم قطنوا تلك الأرض، واتَّخذوها موطنًا لهم.

وجزيرة العرب يحدُّها غربًا البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقًا الخليج العربي وجزء من بلاد العراق الجنوبية، وجنوبًا بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند، وشمالًا بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف في بعض هذه الحدود، وتُقَدَّر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي؛ فأما باعتبار وضعها الداخلي فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حِصنًا مَنيعًا لا يسمح للأجانب أن يحتلُّوها ويبسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم، ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرارًا في جميع الشؤون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتهما لولا هذا السد المنيع.

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم. وتلتقي بها برًا وبحرًا. فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم وآسيا الوسطى والشرق البعيد، وتفضي إلى الهند والصين، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحرًا، وترسي سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأسًا.

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطًا للأمم ومركزًا لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة، والفنون.

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب فقد قسَّمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

(١) **العرب البائدة:** وهم العرب القدامى الذين انقرضوا تمامًا، ولم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها.

(٢) **العرب العاربة:** وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان، وتُسَمَّى بالعرب القحطانية.

(٣) **العرب المستعربة:** وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل، وتُسَمَّى بالعرب العدنانية.

أما العرب العاربة - وهي شعب قحطان - فمهدها بلاد اليمن، وقد تشعَّبت قبائلها وبطونها فاشتهرت منها قبيلتان:

(أ) حمير، وأشهر بطونها زيد الجمهور، وقضاعة، والسكاسك.

(ب) كهلان، وأشهر بطونها همدان، وأنمار، وطيء، ومذحج، وكندة، ولخم، وجذام، والأزد، والأوس، والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام وغيرها.

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن، وانتشرت في أنحاء الجزيرة، يقال: كانت هجرة معظمهم قبيل سيل العَرِم حين فشلت تجارتهم؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام، وقيل: بل إنها هاجرت بعد السيل.

ولا غرو إن كانت هناك مع ما تقدَّم منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدَّت إلى جلاء كهلان، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان.

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام:

(١) **الأزد** - وكانت هجرتهم على رأي سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقياء. فساروا يتنقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال والشرق. وهاك تفصيل الأماكن التي سكنوا فيها بعد الرحلة نهائيًا: عطف ثعلبة بن عمرو من الأزد نحو الحجاز، فأقام بين الثعلبية وذي قار، ولما كَبُرَ ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة، فأقام بها واستوطنها. ومن أبناء ثعلبة هذا: الأوس والخزرج، ابنا حارثة بن ثعلبة.

وانتقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه في ربوع الحجاز، حتى نزلوا بمر

الظهران، ثم افتتحوا الحرم فقطنوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة.

ونزل عمران بن عمرو في عمان، واستوطنها هو وبنوه، وهم أزد عمان، وأقامت قبائل نصر بن الأزد بتهامة، وهم أزد شنوءة.

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه، وهو أبو الملوك الغساسنة. نسبة إلى ماء في الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولا قبل تنقلهم إلى الشام.

(٢) **لخم وجذام** - انتقلوا إلى الشرق والشمال. وكان في اللخميين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة.

(٣) **بنو طيِّء** - ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجا وسلمى، وأقاموا هناك، حتى عرف الجبلان بجبلي طيء.

(٤) **كندة** - نزلوا بالبحرين، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بحضرموت، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين، ثم نزلوا نجد، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها سرعان ما فنيت وذهبت آثارها.

وهناك قبيلة من حمير مع اختلافٍ في نسبتها إليه - وهي قضاعة - هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق[١].

وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق، من بلدة يقال لها: «أر» على الشاطىء الغربي من نهر الفرات، بالقرب من الكوفة، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة إبراهيم عليه السلام، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد.

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران، ومنها إلى فلسطين، فاتَّخذها قاعدة لدعوته، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها[٢] وقدم مرة إلى مصر، وقد حاول فرعون مصر كيدًا وسوءًا بزوجته سارة ولكن الله ردّ كيده في نحره، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله، حتى أخدمها ابنته[٣] هاجر؛ اعترافًا بفضلها، وزوجتها سارة إبراهيم[٤].

---

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها: نسب معد واليمن الكبير، جمهرة النسب، العقد الفريد، قلائد الجمان نهاية الأرب، تاريخ ابن خلدون، سبائك الذهب وغيرها. واختلفت المصادر التاريخية اختلافًا كبيرًا في تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ما ترجَّح عندنا في هذا الباب من حيث الدليل.

(٢) انظر تاريخ ابن خلدون.

(٣) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة، ولكن حقق الكاتب الكبير العلامة القاضي محمد سليمان المنصورفوري أنها كانت حرة، وكانت ابنة فرعون - انظر رحمة للعالمين - ٢/ ٣٦-٣٧. وانظر أيضًا تاريخ ابن خلدون ٢/ ١/ ٧٧.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٣٤ وانظر في تفصيل القصة: صحيح البخاري ١/ ٤٧٤.

ورجع إبراهيم إلى فلسطين، ورزقه الله من هاجر إسماعيل، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الصغير - إسماعيل - فقدم بهما إلى الحجاز، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفد الزاد والماء، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله، فصارت قوتًا لهما وبلاغًا إلى حين. والقصة معروفة بطولها[١].

وجاءت قبيلة يمانية - وهي جرهم الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال: إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة، وقد صرَّحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، وقبل أن يَشُبَّ، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادي قبل ذلك[٢].

وقد كان إبراهيم يرتحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات، إلا أن المصادر التاريخية الموثوقة حفظت أربعة منها.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل، فقام بامتثال هذا الأمر ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٧].

وقد ذُكِرَ في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق، لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها.

وهذه القصة تتضمَّن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشبَّ إسماعيل، أما الرحلات الثلاث الأخر فقد رواها البخاري بطولها عن ابن عباس مرفوعًا[٣]، وملخصها أن إسماعيل لما شبَّ وتعلَّم العربية من جرهم، وأنفسهم وأعجبهم زوَّجوه امرأة منهم، وماتت أمه، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا التزوج، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغيِّر عتبة بابه، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه، فطلق امرأته تلك وتزوَّج امرأة أخرى، (وهي: ابنة مضاض بن عمرو، كبير جُرْهُم وسيدهم على قول الأكثر).

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الأنبياء ١/ ٤٧٤، ٤٧٥، (ح٣٣٦٤، ٣٣٦٥).
(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٧٥ (ح٣٣٦٤).
(٣) ج ١/ ٤٧٥، ٤٧٦.

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا التزوج الثاني فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما، فأثنت على الله، فأوصى إلى إسماعيل أن يُثَبِّت عتبة بابه.

وجاء مرة ثالثة فلقي إسماعيل وهو يبري نبلًا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده، والولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفي هذه المرة بنيا الكعبة، ورفعا قواعدها، وأذَّن إبراهيم في الناس بالحَجِّ كما أمره الله.

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضاض اثني عشر ولدًا ذكرًا وهم: نابت أو نبايوط، قيدار، وأدبائيل، ومبشام، ومشماع، ودوما، وميشا، وحدد، ويتما، ويطور، ونفيس، وقيدمان، وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة، سكنت كلها في مكة مدة، وكان جلُّ معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها. ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيدار.

وقد ازدهرت حضارة الأنباط - أبناء نابت - في شمال الحجاز، وكوَّنوا حكومة قوية دان لها من بأطرافها، واتَّخذوا البتراء عاصمة لهم، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان فقضوا عليهم، وقد جنحت طائفة من المحققين إلى أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل، وبقاياهم في تلك الديار. وإليه جنح الإمام البخاري ورجَّح الحافظ ابن حجر أن قحطان من آل نابت[١].

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها. وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول: كذب النسابون، فلا يتجاوزه[٢]. وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان، مضعفين للحديث المشار إليه، وقالوا: إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبًا بالتحقيق الدقيق[٣].

وقد تفرَّقت بطون معد من ولده نزار - قيل: لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة: إياد وأنمار وربيعة ومضر، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما، فكان من ربيعة: أسد بن ربيعة، وعنزة،

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٠٧ وفتح الباري ٦/ ٦٢١-٦٢٣ وانظر نسب معد واليمن الكبير ١/ ١٣١.
(٢) انظر تاريخ الطبري ٢/ ١٩١- ١٩٤ والأعلام ٥/ ٦.
(٣) ابن سعد ١/ ٥٦ وتاريخ الطبري ٢/ ٢٩١ وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٢/ ٢٩٨، وفتح الباري ٦/ ٦٢٢ ورحمة للعالمين ٢/ ٧، ٨، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧.

وعبد القيس، وابنا وائل - بكر، وتغلب - وحنيفة وغيرها.

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين: قيس عيلان بن مضر، وبطون إلياس بن مضر. فمن قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو غطفان، ومن غطفان: عبس وذبيان، وأشجع وغني بن أعصر.

ومن إلياس بن مضر: تميم بن مرة، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة ابن خزيمة، ومن كنانة: قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وانقسمت قريش إلى قبائل شتَّى، من أشهرها: جمح، وسهم، وعدي، ومخزوم، وتيم، وزهرة، وبطون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبدشمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ.

قال ﷺ: «إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١].

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخيَّر القبائل، فجعلني من خير القبيلة، ثم تخيَّر البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا وخيرهم بيتًا»[٢].

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرَّقوا في أنحاء شتَّى من بلاد العرب، متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب.

فهاجرت عبد القيس، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها.

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر، قصبة اليمامة. وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر، فأطراف سواد العراق، فالأبلة فهيت.

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، ومنها بطون كانت تساكن بكرًا. وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة، من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد

(١) رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع، باب فضل نسب النبي ﷺ ٢/ ٢٤٥ والترمذي ٢/ ٢٠١.
(٢) رواه الترمذي، كتاب المناقب باب ما جاء في فضل النبي ﷺ ٢/ ٢٠١ .